

حرفة الطب في حلب كما صورها مخطوط
كتاب الرحلة إلى بيت الله الحرام لحُجَّيج بن قاسم الوحيدي

د/ أحمد فوزي الهيب
كلية الآداب - قسم اللغة العربية حلب - سورية

مخطوط (الرحلة إلى بين الله الحرام) وصفٌ للرحلة التي قام بها مؤلفها (حُجَّيج بن قاسم الوحيدي) من مدينته حلب الشهباء إلى المدينة المنورة، وزار فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجده، ثم تابع رحلته إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى مدينته حلب مُنْطَلِقِهِ الأول في رحلته هذه. وبناء على ما تقدم فالمخطوط في الأدب الجغرافي مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير وغيرهما، ولكن على الرغم من ذلك فإن مؤلفه حُجَّيج بن قاسم الوحيدي قد وصف فيه حيوات الناس الاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية وجوانبها المتنوعة في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي الذي عاش فيه، والذي أمست فيه حلب وغيرها من بلاد الشام والحجاز ومصر وأكثر البلاد العربية تابعة للسلطنة العثمانية التي كانت آنذاك إمبراطورية قوية مترامية الأطراف، وذلك في عام 922 و 923 هـ⁽¹⁾. كما تضمنت رحلة الوحيدي هذه أيضاً كثيراً من المعلومات المهمة عن العلوم التي كانت معروفة لدى العرب والمسلمين آنذاك

من جهة، وما كان فيها من حقائق ومن أوهام لم يعد العقل يقبل بها الآن، وكذلك أراد الوحيدى فيها أيضاً استعراض معارفه الشخصية المتنوعة والواسعة بكل ما سبق من علوم ومعارف من جهة أخرى، فتحدث عن الأدب وفنونه، وعن علم البديع والتشبيه والاستعارة، كما تحدث عن النحو والألغاز النحوية وغيرها، وعن علوم الرياضيات وقوانينها، وعن المنطق والطب والموسيقا وغيرها من علوم عصره التي رأى أنها تنقسم إلى شرعية ورياضية وفلسفية، وأشار إلى علاقاتها مع بعضها، كعلاقة علم الموسيقا بعلم الطب، الأمر الذي جعل كتابه هذا وثيقة مهمة جداً احتوت علوم عصره ومعارفه مختصرة، وصورت كثيراً من جوانب حيوات القرن العاشر الهجري في حلب وبلاد الشام بخاصة، وفي غيرهما من البلاد العربية والإسلامية بعامة تصويراً دقيقاً جمع بين الفائدة العلمية والطرافة والمتعة والدقة جمعاً قلما نجده في غيره من الكتب، مما أعطاه أهمية خاصة جعلته يختلف عن كثير من كتب الرحلات، وجعله أقرب إلى كتب الجغرافية البشرية.

وساعد الوحيدى على ذلك أنه كان أديباً وقاصّاً وشاعراً، ومع ذلك فقد عزا كثيراً من نُقوله إلى مصادرها التي أخذها منها، أو إلى أصحابها الذين أخذها منهم بعدما ارتحل إليهم متكبداً في ذلك مشاقّ السفر ومخاطره، كما ترك بعضها من غير عَزْوٍ.

ولم نجد للكتاب بعد البحث والتدقيق سوى نسختين
مخطوطتين اثنتين فقط، لا ثالث لهما في العالم. وهما:

النسخة المخطوطة الأولى:

وهي موجودة في مكتبة معهد الدراسات الشرقية بمدينة
(سان بطرس بورغ) في جمهورية روسيا الاتحادية، ومحفوطة ضمن
مجموعة روسو الحلبية، برقم (B800)، وقد بلغ عدد أوراقها
ثلاثون ومائة ورقة، وتألّفت كل ورقة من صفحتين، يُمنى ويُسرى،
وفي كل صفحة خمسة وعشرون سطرًا تقريبًا، وفي كل سطر إحدى
عشرة كلمة وسطيًا، وكُتبت بخط نسخي مقروء بعامة، ولكن ثمة
كلمات غير واضحة بسبب كتابتها أولون حبرها، وثمة كلمات لم
يكتبها الناسخ، وترك مكانها مسافة بيضاء ليستكملها فيما بعد،
بيد أنه لم يفعل لسبب أو لآخر.

ولقد نسخها أحمد ابن الشيخ مصطفى الحلبي الشهير
بالإخلاصي من مسودة مؤلفها حُجيج بن قاسم الوحيدي في دار
الشفاء الأرغونية⁽²⁾ بحلب، وكان الفراغ من نسخها يوم الاثنين 15
صفر من عام 1130هـ. كما أن في الزاوية اليسرى السفلية من ورقة
الغلاف هذا التمليك (مما منَّ الله تعالى به على عبده أحمد بن
الشيخ طه الأشرفي غفر الله له وللمسلمين أمين سنة 1199هـ).

النسخة المخطوطة الأخرى:

نسخة دار الكتب المصريّة، وعنوانها، كما هو مكتوب على غلافها، (رحلة العالم العلامة حُجّيج بن قاسم الشهير بالوحيديّ)، ورقمها (3148) الفنّ (ط). وعدد أوراقها (160)، وعدد السطور في كل صفحة (21) سطرًا، في كل منها قرابة عشر كلمات. وخطّها غير واضح في مواضع ليست بالقليلة. ولون مدادها أسود، ما عدا العناوين كتبت بلون أحمر.

وفضلاً عن ذلك ليس عليها سماعاتٌ أو تملُّيكاتٌ، ولا هوامشٌ أو تعليقاتٌ أو أيُّ شيءٍ يشير إلى اسم ناسخها، أو تاريخ نسخها، كما أن الحذف فيها كان كثيرًا، وصل مقداره أحيانًا إلى سطرٍ أو سطرين، وإلى ما يقرب من صفحة في نهاية المخطوط. أما مؤلف هذه الرحلة فلم تمدنا المصادر عنه سوى أن اسمه حُجّيج بن قاسم الحلبي الشهير بالوحيدي الحلبي⁽³⁾، وأنه قد حجّ عام 992هـ/1584م، الأمر الذي يشير إلى أنه قد ولد أواسط القرن العاشر الهجري، وتوفي بعد تاريخ رحلته هذه، وهو عام 992هـ، فربما كانت وفاته في أواخر القرن العاشر الهجري أو في بدايات القرن الحادي عشر الهجري.

كما تدل المصادر والمراجع التي ذكرته على أنه طبيب في دار الشفاء الأرغونية بحلب قرب باب قنسرين⁽⁴⁾، وأن له (كتاب منهج الأطباء وشفاء الأحبّاء)⁽⁵⁾ في الطب فضلًا عن كتاب (الرحلة إلى بيت

الله الحرام)، وهو موضوع هذا البحث ⁽⁶⁾، وأنه كان - إلى جانب عن كونه طبيباً - عالماً موسوعياً استوعب علوم عصره جميعها، مثل الفقه على المذاهب الأربعة، وإن كان هو شافعيًا كما بدا مما جاء في كتابه هذا، ومثل علم الحديث الذي افتخر بأنه قد حاز فيه السند العالي النادر في زمانه، وعلوم العربية من أدب ولغة ونحو وبلاغة، ومثل الفلسفة والمنطق والرياضة والفلك والجغرافية والفيزياء وغيرها كالسحر والأوقاف وأمثالهما. وهو كذلك رحالة ارتحل إلى مكة المكرمة وغيرها، وكاتب أديب أيضًا سجل وقائع رحلته إلى الحج الأنفة الذكر في كتاب ⁽⁷⁾ وصفًا لا يخلو من الأصلة، كما ذكر كراتشكوفسكي أنه كان صديقًا لمعاصره ومواطنه الرحالة محمد بن أحمد المعروف بسُكَيْكِر، والمتوفى 987هـ/1579م ⁽⁸⁾.

واختلف العلماء في نسبته، فهو في كشف الظنون: الوحيد الحلبي ⁽⁹⁾، وكذا في معجم المؤلفين ⁽¹⁰⁾، بينما أثبت بروكلمان ⁽¹¹⁾ وصلاح الدين المنجد ⁽¹²⁾ أنه: الواحدي. ولكن نسبته الصحيحة هي (الوحيدى)، وهي التي ذكرها في بداية مخطوطة كتابه هذا، فقال عن نفسه: (من هو بالوحيدى شهير)، ولقد ذكر ذلك كراتشكوفسكي ⁽¹³⁾ وزيدان ⁽¹⁴⁾.

والذي يعنينا الآن في هذا البحث ما جاء في المخطوط عن الطب حرفة وعلمًا، أو نظريًا وتطبيقيًا.

رأى الوحيدى أن الطب أعلى العلوم وأنبلها، لأنه يُعنى بصحة الإنسان التي تعتمد عليها سعادته، فقال: (اعلم أيُّها الوليُّ

الحميم، والخِلُّ الصادقُ البارُّ الرحيم، أن علم الطب لمن أعلى العلوم قدراً، وأنبهها بدرّاً، إذ به صحة الأبدان الموجبة للسعادة).

وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر بالتداوي، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)⁽¹⁵⁾. ولما رواه أيضاً مسلم في صحيحه عن جابر - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لكل داء دواء، فإذا أصبت دواء الداءِ برأ بإذن الله تعالى)⁽¹⁶⁾. وكذلك روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن أسامة بن شريك⁽¹⁷⁾ رضي الله تعالى عنه أنه قال: (قالوا: يا رسول الله نتداوى؟ قال: نعم، تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد، الهرم)⁽¹⁸⁾. وفي حديث آخر (إلا السام. وهو الموت).

كما ذكر الوحيدي أيضاً أن الفقهاء حضّوا على تعلم الطب، مثل الإمام الشافعي الذي قال: (تعلّموا الطب ولا تتركوه)⁽¹⁹⁾. وجعلوه من الفروض الكفائية التي إن قام بها البعض الذي يفي بالحاجة سقطت عن الآخرين، وإلا فالجميع آثمون⁽²⁰⁾. إذ لو خلت البلدة من طبيب يجب المهاجرة عنها.

ثم ضبط كلمة (الطب) فقال: الطّب مثلث الطاء⁽²¹⁾، فالملتوح الطاء، هو: الرجل العالم بالأمر، وكذلك الطبيب يقال له: (طَب) أيضاً، والمكسور طاؤها - أي الطَّبّ - هي فعل الطبيب ومهنته،

ومضمومها - أي الطَّبّ - لغة في الطَّب (22). وذكر الوحيدي أنه - فضلاً عما سبق - اسم موضع نقلاً عن ابن السَّيِّد (23).

فقلتُ هلِ انْهَلْتُمْ بِطَبِّ رِكَابِكُمْ بِجَائِزَةِ الْمَاءِ الَّتِي طَابَ طَيْفُهَا (24)

ثم شرح معنى كلمة الطب، فقال:

- في اللغة: تعني التجريب والإصلاح والعادة.
- وفي الاصطلاح: علمٌ يُعرف منه أحوال بدن الإنسان، من جهة ما يصحّ ويزول من الصحة، لَتُحَفَظَ الصحةُ حاصلَةً، وتُسْتَرَدُّ زائلةً ما أمكن.

وهذا التعريف جامع مانع شامل للعلل الأربع (25)، لأن بدن الإنسان هو موضوع الطب، وهو العلة المادية.

وذكر أن قول (يُعرف منه أحوال بدن الإنسان) إشارة إلى العلة الفاعلية.

وقول (من جهة ما يصح ويزول عن الصحة) إشارة إلى العلة الصورية.

وقول (لَتُحَفَظَ الصحةُ وتُسْتَرَدُّ) إشارة إلى العلة الغائية.

وذكر أن الغاية من التطبُّب: إتمام ما نقص من أجزاء البدن، لَتَتِمَّكَنَ الصِّحَّةُ، وتجلس العافية على كرسٍها.

ثم ردَّ الوحيدي على من قال: إن الطب ظنيٌّ وليس يقينياً. وبناء على ذلك لا يوصف بأنه علم، ردَّ عليه بقوله: إنه علم لأن أكثره

يقينيَّ وإن الكليات المذكورة -في قسميه النظري والعملي- أمورٌ معلومة
محقّقة بعضها بالحسّ والعيان، وبعضها بالجزم والبرهان.

وأما موضوع الطب فهو بدن الإنسان من جهة الصحة
والمرض، لأن موضوع كل علم ما يبحث فيه. وأما مبادئه فبعضها
إلهاميةٌ، وبعضها تجريبيةٌ، وأما وسائل تعلمه فكتبه المتفق على
صحتها مثل كتاب الشفاء لابن سينا فضلاً عن المستشفيات.

وأشار الوحيدي إلى أن الطب ينقسم إلى:

1. جزء علمي، وله أربعة أقسام: طبيعيات، وأحوال، وأسباب،
وعلامات.

2. وجزء عملي، وله قسمان: حفظ الصحة، ومعالجة المرض.

وكذلك فرّق الوحيدي بين الطبيب والحكيم. فالطبيب هو
الذي يعالج بدن الإنسان، فيأمره بما يلائم، وينهاه عما ينافر. بينما
الحكيم يعرف الأشياء بحقائقها فقط، ولذا يقال له فيلسوف.

كما تحدث الوحيدي أيضاً عن أجزاء بدن الإنسان وبعض
صفاتها فقال: وأعدل ما في الإنسان الجلد. وأعدله جلد أنملة
السبابة، لأنها كالحاكم المشير العادل، ولأنها تميز الخشن من
الناعم، والحر من البارد، وتفصل هذا من ذاك، وبها يكون التحرير
والإمضاء مع بقية أخواتها. ألا ترى أن الإنسان إذا أراد أن يجسّ

شيئاً أوّل ما يجسّسه بها، ثم ببقية الأنامل، ثم بجلد الأصابع، ثم بجلد الكفّ. وما ذلك إلا للاعتدال.

ثم الجلد مطلقاً، وهو معتدل، ولولا اعتداله لمال إلى جانب الحر أو البرد، وإذا قُسّته إلى ما في البدن من الأعضاء تجده أبرد من أسخنها وهو القلب، وأسخن من أبردتها كالعصب، وأيبس من أرطبها كالدماغ، وأرطب من أيبسها وهو العظم. لأنه مركب من دم وعصب فالدم حاررطب، والعصب بارد يابس. وأحرّماً في البدن الروح والقلب، لكن حرارة الروح أكثر كمية وأقلّ كيفة، والقلب بعكس ذلك، ثم الكبد ثم العضل، ثم الطحال ثم الكلى ثم الشرايين، ثم العروق ثم الجلد.

وأبردُ ما في البدن البلغم ثم الشعر ثم العظم ثم الغضروف، ثم الرباط ثم الوتر ثم الغشاء، ثم العصب ثم النخاع ثم الدماغ، ثم الشحم ثم الدهن ثم الجلد.

وأرطبُ ما في البدن البلغم ثم الدم ثم الدهن، ثم الشحم ثم الدماغ ثم النخاع، ثم لحم الثدي ثم الأنثيان، ثم ظاهر الرئة للرطوبة الصاعدة والهابطة، ثم الكبد ثم الكليتان، ثم العضل ثم الجلد.

وأيبسُ ما في البدن الشعر ثم العظم، لأنه يغدو كثيراً في الحيوان. وقيل: العظم ثم الغضروف ثم الرباط، ثم الوتر ثم

الغشاء ثم الشرايين، ثم الأوردة ثم عصب الحركة ثم القلب ثم الجلد.

وكذلك أشار الوحيدي إلى أن أهمية الدم تأتي من وظيفته، وهي نقل الغذاء إلى أعضاء الجسم. وتحدث عن توابعه كالبلغم والصفراء، وسماها الأخلاط، ووصفها بأنها أجسام رطبة سيالة يستحيل إلها الغذاء أولاً. وأكد أن الدم أفضلها لأنه الخلط الأصلي والغذاء الحقيقي، وأن باقي الأخلاط توابع له، وفائدته أن يخلف على البدن بدل ما يتحلل، إما بمقدار ما يتحلل وهو سن الوقوف⁽²⁶⁾، أو بالزيادة عليه وهو في سن النمو، أو بالنقصان عنه وهو في سن الانحطاط، ويفيد البدن رونقاً وجمالاً موافقاً للحياة بكتلتا كيميائيه.

وبعدَهُ في الفضيلة البلغم، لأنه دم بالقوة يوافق الدم بالرطوبة. ثم الصفراء، لأنها توافق الدم بالحرارة. ثم السوداء، لأنها تخالفه في كيميائيه، وهي حارة رطبة. لأنها إذا غلبت على البدن ولدت عللاً حارة رطبة، لا يكون شفاؤها إلا بالأشياء الباردة اليابسة. والبلغم باردٌ رطبٌ، لأنّه متى كَثُرَ في البدن ولدت عللاً باردةً رطبةً، شفاؤها بالأشياء الحارّة اليابسة. والصفراء حارة يابسة، متى كثرت في البدن ولدت عللاً حارة يابسة، شفاؤها بالأشياء الباردة الرطبة. والسوداء باردة يابسة، متى كثرت في البدن، ولدت عللاً باردة يابسة، شفاؤها بالأشياء الحارة الرطبة⁽²⁷⁾. ثم أشار بإيجاز شديد إلى الأعضاء والأرواح والأفعال وأقسامها.

كما تحدث الوحيدي أيضًا عن مراحل العمر، وقسمها إلى

أربع هي:

1- سن النمو، وهو إلى الخامسة والثلاثين، وتغلب فيه الرطوبة الغريزية للنشوء.

2- ثم سن الوقوف إلى الأربعين، وتستوي فيه الكيفيات الأربع.

3- ثم سن الكهولة إلى الستين.

4- ثم سن الشيخوخة إلى آخر العمر.

والكهل والشيخ باردان يابسان، والشيخ أرطب بالرطوبة البالغة.

وأما القسم العملي من الطب فذكر الوحيدي أنه يُعنى

بصحة الإنسان ومرضه، وجعل أحوال البدن ثلاثة، هي:

1- الصحة

2- والمرض

3- وحالة ثالثة: متوسطة بين الحالتين السابقتين، إما

بانتهاءهما كالشيخ والطفل والناقة. أو لاجتماعهما معًا لدى

إنسان واحد. ويكون هذا الاجتماع في عضوين كالأعشى، أو في

عضو، ولكن في جنسين متباعدين كصحيح المزاج مريض

التركيب كالأفطس، أو متقاربين كصحيح الخلقة مريض المقدار

كصغير المعدة، أو في وقتين مختلفين كمن يمرض صيفًا ويصحّ

شتاء كمن هو حار المزاج أو بالضد⁽²⁸⁾.

وانتقل الوحيد بعد ذلك إلى الحديث عن أسباب الحالات السابقة، فعرف السبب عند الأطباء بأنه ما كان فاعلاً لحالة من أحوال بدن الإنسان، وهي: الصحة، والمرض، والحالة المتوسطة بينهما. وذكر أن لكل واحد منها ثلاثة أسباب:

- بادئ: وهو إما أن يكون من خارج كحرّ الشمس، أو من داخل كالغضب.

- وسابق: كالامتلاء للعفونة.

- وواصل: كالحصى للعفونة.

ثم انتقل إلى الحديث عن العلامات التي تدل على تلك الحالات الأنفة الذكر، وفرّق بينها وبين الدليل والعرض في الطب رغم تقارب معانيها. فالعلامة هي كل حالة يُستدل بها على أحوال بدن الإنسان. وهي أعمّ من العرض، لأنها تكون للصحة والمرض، والعرض لا يكون إلا للمرض. والعلامة عند المحققين أعمّ من الدليل، لأنها بالنسبة إلى الطبيب دليل لاستدلاله بها، بينما هي بالنسبة إلى المريض عرض لعرضها له.

والعلامة إن دلت على ماضٍ سُميت مذكرةً، مثل الاستدلال بنداوة البدن وكون النبض منخفضاً ضعيفاً على عرق سابق. وينتفع بهذه العلامات الطبيب وحده.

وإن دلت على حاضر تُسمى دالاً، كالاستدلال بعِظَم النبض مع السرعة على حرارة القلب، لأن الطبيب إذا عَرَفَ كمال البُحْران⁽²⁹⁾ لم يتعرض للطبيعة بشيء من الاستفراغ.

وإن دلت على مستقبل سُمِّيت تقدمة المعرفة وسابق العلم. ولا شك في أن الطبيب يفيد من جميع تلك العلامات بوساطة حواسه الخمس، وهي: البصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس.

وكذلك أشار الوحيدى إلى ما يمكن تسميته بالطب الوقائي، وذلك في حديثه عن المراحل الصحراوية في طريق رحلته إلى الحج، وهي الخالية من الماء أو التي ماؤها غير صالح للشرب ويؤذي شاربه، فقال: ينبغي للإنسان أن يُقلِّل من الأكل في هذه المراحل، وأن يَمُرُس في الماء شيئاً من التمر الهندي⁽³⁰⁾ إن كانت الطبيعة قابضة⁽³¹⁾، ولا بأس بشراب الريباس⁽³²⁾.

كما أكّد الوحيدى أيضاً على أنه يجب على الطبيب أن يكون عارفاً بالعلوم التي تفيده في مهنته كالمنطق والموسيقا والفقه. كما أشار أيضاً إلى ضرورة علم المنطق للطبيب، لأنه يعصم الذهن عن الوقوع في الخطأ، ويساعده في الوصول من الأمور المعلومة إلى الأمور غير المعلومة، لأن المنطق يشتمل على تصورات وتصديقات، ولكلٍّ منهما مبادئ ومقاصد. وذلك لأن الطبيب يحتاج

إليه ليعلم التصوّر غير الظاهر، أي ليعلم المجهول بوساطة ما يراه من مظاهر في المريض أو معلومات.

ثم تحدث الوحيدي عن أهمية دور الموسيقى في علاج بعض الأمراض ومعرفة قرع النبض، وأوجب على الطبيب أن يكون عالماً بها وبأنغامها وميزات كل منها، وذلك حتى يداوي كل علة بما يلائمها من الأنغام، كما يعالجها بالأدوية النباتية أو الكيميائية التي تؤخذ عن طريق الفم أو غيره، وأتى ببعض الأمثلة على ذلك مثل العلة السوداوية التي تُداوى بالأصوات الحسان، فتزول سريعاً، وعلل ذلك بأن النفس تحصل لها اللذة عند سماعها الصوت الملائم، فتنبسط الحرارة الغريزية عند ذلك انبساطاً كلياً، فيندفع الخلط السوداوي، بينما إذا سمعت الصوت المنافر انقبضت، فينضغط الحار الغريزي، وربما يكون ذلك سبباً للموت. واستشهد على ذلك بأن لأهل الهند أنغاماً يعالجون بها بعض الأمراض، ولهم آلة يسمونها (الكنكلة) بوتر واحد، على جسم واحد، يحاكون بها سائر الأصوات.

وجعل ما تقدم الوحيديّ يعرف النغمة بأنها صوت يستمر زمناً معيناً، وتجري من الألحان مجرى الحروف من الأصوات. فعلم من ذلك أن الموسيقى علم نظري فضلاً عن جانبها التطبيقي، يبحث عن النغم من حيث إنه يتفق ويختلف وتترنُّ إيقاعات الانتقالات فيها، لتتألف منها الألحان. وأن لها أصولاً أربعة هي: الرست،

والعراق، والأصهبان، والزَّرْفَكَنْد. ولكل منها صفات وميزات مختلفة عن غيره، تجعلها مناسبة لبعض الحالات المرضية دون غيرها.
فالرَّسْتُ: حار يابس كطبع الصفراء، ملائم لمن غلب عليه المزاج البلغمي البارد الرطب.

والعراق: حار رطب كطبع الدم، يناسب لمن غلب عليه الخلط السوداوي البارد اليابس.

والأصهبان: بارد رطب كطبع العلقم، يناسب لمن غلب عليه الخلط الصفراوي الحار اليابس.

والزَّرْفَكَنْد: بارد يابس، يناسب لمن غلب عليه الخلط الدموي.
ثم ذكر الوحيد أن من كل واحد مما سبق تُشْتَقُّ نغمتان، تُسمَّيان أصولًا أيضًا.

فالعشاق والزَّنْكلاه تُشتقان من الرِّسْت، وطبعهما كطبع الحرارة واليبوسة. والبَزْرَك والحُسَيْنِي تُشتقان من العراق، وطبعهما كطبيعة الحرارة والرطوبة. والنَّوَى وأبوسُليك تُشتقان من الأصهبان، وطبعهما كطبيعة البرودة والرطوبة.

والحجاز والرَّهَّاوي تُشتقان من الزَّرْفَكَنْد، وطبعهما كطبيعة البرودة واليبوسة.

وأشار الوحيد أيضًا إلى أن كل نغمة تهيج في النفس خصلة ملائمة لطبعها، وكذلك مشتركاتها. فالعشاق وأبوسليك والنوى تورث الشجاعة والبسط، فلذلك تلائم بلاد الترك والحبشة والزنج. والرست والعراق تبسطان النفس بسطًا لذيذًا لطيفًا،

فلذلك ثلاثمان طباع الفقهاء والعلماء وأرباب الأقلام. والرهاوي
والزنكلاه والحجاز تورث حزنًا وفتورًا، ولذلك ثلاثم العشاق
والفاقدين لأحبابهم وأهل التصوف. والبزرك والزرפקند والحسيني
ثلاثم الخدّام والنساء وأهل الطرب.

وكلك ذكر الوحيدي أيضًا أن لكل نغمة وقتًا من الأوقات
أوفقَ لها من غيره، فيصلح لوقت السّحر الرست، ولوقت الصبح
الرهاوي، ولطلوع الشمس الحسيني، ولنصف النهار وبين
الصلاتين⁽³³⁾ العراق، ولوقت العصر النّهانْد والحجاز، ولغروب
الشمس الأبوسليك، وللمغرب العشاق والزنكلاه، ولثلث الليل
النّوى.

ثم تحدث الوحيدي عن أهم الآلات الموسيقية في زمنه،
وهو العود أو البرّبط⁽³⁴⁾ وعن أوتاره الأربعة وصفة كل منها ودوره في
العلاج، وهي:

- البَم: وهو بمنزلة الخلط السوداوي، أي بارد يابس.
- ويليّه المثلث: وهو بمنزلة البلغم، أي بارد رطب.
- ويليّه المثني: وهو بمنزلة الدم.
- ويليّه الزير: وهو أرفعها، وهو بمنزلة الصفراء، أي حار يابس.

ولهذا قال ابن أبي صادق ⁽³⁵⁾ في شرح مسائل حنين ⁽³⁶⁾: إن
الجسد بمنزلة الآلة، والأوتار بمنزلة العروق، فكما أن من نقرات
الأوتار المنافر والملائم، والمنظم وغير المنظم، فكذلك النبضات.
وبعد ذلك نصح الوحيددي من أراد الاستزادة أن يقرأ كتاب
أبي نصر الفارابي ⁽³⁷⁾، وكتاب الموسيقى الذي هو من جملة كتاب
الشفاء لأبي علي ابن سينا ⁽³⁸⁾، وكتاب عبد المؤمن صفي الدين
الخُوَيِّ ⁽³⁹⁾ ثم رسالته المسماة بـ (الدّرّ والعقيان في آلات نفس
الإنسان)، والتي ألّفها لأخي زاده ⁽⁴⁰⁾ قاضي العساكر الرومية، كما
أكد على أهمية قراءة الطبيب لكتب الطب، مثل كتاب (الشفاء)
للشيخ الرئيس ابن سينا ⁽⁴¹⁾ لأنه جمع أسرار الكتب التي صُفِّت في
الطب.

كما تحدث الوحيددي أيضًا على ضرورة معرفة الطبيب
للفقه وأحكامه المتعلقة بمهنته، وعلى ضرورة أن يكون أيضًا على
خلق قويم مشهودًا له بالعدالة والاستقامة والنزاهة، وذلك لأنه
يُقَلَّد في مسائل شرعية، لا يُقَلَّد فيها غيره. ثم ذكر بعض المسائل
التي تؤكد ذلك، مثل:

- 1- إذا خيف من استعمال الماء حدوث مرض، أو زيادته،
أو طول مدته، أو عيب فاحش في عضو ظاهر، فيجوز للمريض
التييم بالاعتماد على قول الطبيب.

2- إذا انقطع دم المستحاضة بعد الوضوء، ولم تعتد انقطاعه وعَوَّدَه، وأخبرها الأطباء بعدم العود، وأنها شُفِيت، وَجَبَ عليها تجديد الطهارة.

3- إذا حصل للمريض رمد أو انصباب ماء، وقال له الأطباء: إن صليت مستلقياً حصل لك البرء التام، وإن ركعت أو سجدت لا يمكن بُرؤُك، جازله أن يصلي مستلقياً بالإيماء.

4- إذا كان بالإنسان مرضٌ، وقال له الأطباء: إن صُمْتَ اشتدَّ بك المرض، جازله الفطر.

وبعدما تقدم علل الوحيدي ذكره لتلك العلوم التي يجب أن يعرفها الطبيب فقال: وإنما ذكرنا هذه العلوم، ليعلم مَنْ لا علم له بهذه الصناعة التي هي أشرف بضاعة أنها علم شريف حاوية لكل معنى لطيف.

واللافت للنظر حديث الوحيدي عن أخطاء الطبيب وأنواعها ومتى يجب أن يدفع التعويضات للمتضرر، سواء أكان المتضرر المريض أم ذويه، وسعى ذلك (الضمان)، واستند في ذلك على الحديث النبوي الشريف الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تطيب ولم يُعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن)⁽⁴²⁾. وهو دليل قوي على وجوب الضمان على الطبيب

الجاهل الذي لم يتقدم له فيه معرفة، لأنه قد هجم بجهله على إتلاف النفس أو إلحاق الضرر بها.

ولأهمية هذا الأمر وخطورته أسهب الوحيد في فيه وفصل في أقسامه ومثل لها معتمداً على مذاهب الفقه الإسلامي، وهي:

- القسم الأول:

طبيب حاذق أعطى الصناعة حقها، ولم تجن يده تلف العضو أو النفس، فهذا لا ضمان عليه بالاتفاق في المذاهب الأربعة. وهذا كما إذا ختن الصبي في وقت وسنه قابل للختان، وأعطى الصنعة حقها، فتلف العضو أو الصبي، لم يضمن. وكذلك إذا بَطَّ⁽⁴³⁾ من عاقل أو غيره ما ينبغي بَطُّه في وقته على الوجه الذي ينبغي، فتلف به، لا يضمن.

- القسم الثاني:

طبيب جاهل باشرت يده من يبطه فتلف به. فهذا:

- إن عَلِمَ المجني عليه أنه جاهل، لا علم له، وأذن له في طبعه، لم يضمن. وهذا لم يخالف سياق الحديث، لأن سياقه يدل على أنه غرر بالمريض، وأوهمه أنه طبيب، وليس كذلك هنا.

- وإن ظنَّ العليل أن الرجل الذي يعالجه طبيب، وأذن له في طبيه لأجل معرفته، ضَمِنَ الطبيب، وكذلك إن وصف له دواءً، فظن المريض أنه وصفه بمعرفته وحذقه، فتلف به، ضَمِنَهُ.

- القسم الثالث:

طبيب حاذق، أُذِنَ له، فأعطى الصنعة حقّها، فأخطأت يده، وتعدّت إلى عضو صحيح فأتلفته، مثل أن سبقت يد الخاتن إلى الكمّرة، فهذا يضمن، لأنها جناية خطأ.

- القسم الرابع:

طبيب حاذق، أعطى المريض دواء فقتله، فالدية على الطبيب، فإن لم يستطع فمن بيت المال.

- القسم الخامس:

بطّ طبيبٌ سلعةً⁽⁴⁴⁾ من مجنون، أو ختن صبيّاً بغير إذن وليّه، أو مملوكاً بغير إذن سيده، ضمن⁽⁴⁵⁾.

ولم يكن الوحيدى ناقلاً لما قرأه أو رآه واصفاً له فقط، بل انتقد ما رآه من سلبيات، مثل انتقاده لمُدّعي الطب، وقد استخدم في ذلك كلمات قاسية تدلُّ على مدى ألمه منها، فقال: ولقد رأيت ببلدتنا حلب أناساً يشتغلون، ولا ثبتَ لهم درس واحد، يتعاطون الطب، وأناساً كانت آبائهم أطباء، فورثوا الطبابة بالوراثة ليس إلا.

وبعد، أرجو أن يكون هذا البحث قد حالفه التوفيق في إلقاء بعض الأضواء على مهنة الطب ومنزلة وصفات الطبيب وعلاقته بغير الطب من علوم أخرى مثل علم الفقه والموسيقا

والمنطق وغيرها في القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس
عشر الميلادي في حلب الشهباء بخاصة وبلاد الشام والوطن العربي
بعمامة.

- الهوامش:

- (1)- تاريخ الدولة العثمانية العلية 1-96.
- (2)- ويقال له البيمارستان الكاملى بناه نائب حلب أرغون الكاملى سنة 755هـ، وهو مشفى عظيم لا نظير له كجهاز بكل ما يحتاج إليه ويقع قرب باب قنسرين. (نهر الذهب في تاريخ حلب 2-82).
- (3)- في كشف الظنون 2-1881 ومعجم المؤلفين 1-528: (الوحيد). وفي تاريخ آداب اللغة العربية 3-339 (الواحدى). كما نجد له ذكرًا وجيزًا في تاريخ الأدب العربيّ 13، 12-343 ومجلّة معهد المخطوطات العربيّة العدد 6 ص 322.
- (4)- أحد أبواب أسوار حلب الشهيرة من جهة الجنوب. (نهر الذهب 2-10).
- (5)- هدية العارفين 1-263.
- (6)- كشف الظنون 1881 وتاريخ زيدان 3-339.
- (7)- هو هذا الكتاب.
- (8)- تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ص 758-759.
- (9)- كشف الظنون 2-1881.
- (10)- معجم المؤلفين 3-190.
- (11)- تاريخ الأدب العربيّ 13، 12/343.
- (12)- مجلّة معهد المخطوطات العربيّة عدد 6 ص 322.
- (13)- تاريخ الأدب الجغرافى 758.
- (14)- تاريخ آداب اللغة العربية 2-339.
- (15)- صحيح البخارى 5-2151 وفي الأصل و (د) (ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء)، ولكننا أثّرنا رواية البخارى، لأن المؤلف نصّ على أنه أخذها من صحيح البخارى.
- (16)- مسند أحمد 22-449.
- (17)- أسامة بن شريك، الذبيانيّ، له صحبةٌ وروايةٌ، روى له البخارىّ ومسلم وأبو داود والترمذى، ت 70هـ (الاستيعاب 1-60).

- (18)- مسند أحمد 4-278. وفي الأصل و (د) ما يلي: (قالوا: يا رسول الله أفنتداوي؟ قال: نعم، يا عباد الله، تداوؤا...) وأثرنا إثبات رواية مسند أحمد، لأن المؤلف صرح بأنها مصدره الذي أخذ منه.
- (19)- لم أجده بلفظه.
- (20)- هي ما وجب على الجميع وسقط بفعل البعض. (شرح مختصر الروضة 405).
- (21)- أي تُقرأ بفتح الطاء وبضمها ويكسرهما.
- (22)- ينظرتاج العروس (ط ب ب).
- (23)- عبد الله بن محمد بن السيد البطلاني النحوي، كان عالماً بالأدب واللغات، سكن مدينة بلنسية وتوفي فيها، ألف كتباً نافعة ممتعة منها: كتاب المثلث في مجلدين. 521هـ (وفيات الأعيان 3-96).
- (24)- البيت ليس في (د) وهو للنهدي أو للخنعي. (كتاب التعليقات والنوادر 2-910).
- (25)- العلل الأربعة: الفاعلية، والغائية، والمادية، والصورية.
- (26)- أي مرحلة توقف النمو في عمر الإنسان.
- (27)- يُنظر كتاب (إتمام الدراية للسيوطي 155).
- (28)- ينظر القانون في الطب 1-104.
- (29)- البُخْران: تغير عظيم يحدث دفعة إلى الصحة، أو العطب. (معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم 185).
- (30)- شجر مثمر من الفصيلة القرنية. ينبت في البلاد الحارة، دائم الخضرة، أوراقه مركبة ريشية الشكل، وأزهاره صفراء شاحبة، وثماره غذائية مليئة، وشرابه حامض نافع. (معجم اللغة العربية المعاصرة 3-2370).
- (31)- أي إن كان معه إمساك.
- (32)- نبات معمر ينبت في البلاد الباردة والجبال ذات الثلوج تؤكل ضلوعه وترب ويعصر منه شراب.
- (33)- أي بين الظهر والعصر. (الأزمنة وتلبية الجاهلية 1-58).
- (34)- آلة موسيقية تشبه العود، فارسي معرب قال ابن الأثير أصله (يَرَبْتُ) لأن الضارب به يضعه على صدره، كما سُيِّهَ بصدر البط. والصدْرُ بالفارسية يَر. وعُرب فصار اليربط (لسان العرب ب رب). والمعجم الذهبي فارسي عربي (ب رب).

- (35)- هو عبد الرحمن بن علي الطبيب أبو القاسم النيسابوري، صنف شرح مسائل حنين بن إسحاق في الطب وغيره. ت 470 هـ (هدية العارفين 1-517).
- (36)- حنين بن إسحاق العبّاديّ، طبيب مؤرّخ مترجم أخذ الطبّ عن يوحنا بن ماسويه وغيره، كان إمام وقته في صناعة الطّبّ، وله كتبٌ وترجماتٌ كثيرةٌ تزيد على مئةٍ. ت 260 هـ (وفيات الأعيان 2-217).
- (37)- أي كتاب (الموسيقا). والفارابي: محمّد بن محمّد بن طرخان، له تصانيفٌ مشهورةٌ، وكان فيما يقال: يعرف سبعين لساناً، وهو أبرع من ضرب بالعود، ويقال: إنه أوّل من اخترع القانون، وكان يحب الوحدة، ويصنّف في المواضع الزهية، وقلّما يببّض، ت 339 هـ (سير أعلام النبلاء 12-32).
- (38)- كشف الظنون 2-1055.
- (39)- صفّي الدين عبد المؤمن بن يوسف الخُوّيّ الأرموي البغدادي هو إمام عصره في ضرب العود والموسيقى. نشأ في بغداد وظهر نبوغه في ضرب العود، له نظم رقيق وعلم بالتاريخ، وتصانيف، منها "كتاب الأدوار في معرفة النغم والأوتار. ت 693 هـ (الأعلام 4-170).
- (40)- عبد الحليم بن محمد الرومي المعروف بأخي زاده، قاض ومن علماء الدولة العثمانية، ولد وتعلم وتوفي بإسطنبول، وولي قضاء بروسة وأدرنة وعسكروم إيلي. له كتب بالعربية، منها تعليقة على الأشباه والنظائر. ت 1013 هـ (خلاصة الأثر 2-319).
- (41)- ابن سينا: هو الحسين بن عبد الله بن الحسن البخّي، ولد 370 هـ، صاحب التصانيف في الطّبّ والفلسفة والمنطق. ت 428 هـ (سير أعلام النبلاء 13-199) وكشف الظنون 2-1055.
- (42)- السنن الكبرى للنسائي 4-248.
- (43)- شقّ.
- (44)- أي شقّ طبيبٌ شجّةً.
- (45)- ينظر كتاب الطب النبوي لابن القيم 105.

- المصادر والمراجع

- إتمام الدراية لقراء النقاية. السيوطي. تح إبراهيم العجوز. دار الكتب العلمية. بيروت 1985 م.
- الأزمنة وتلبية الجاهلية. قُطْرُب. تح صالح الضامن. مؤسسة الرسالة. بيروت 1985 م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب. القرطبي. تح علي محمد البجاوي. دار الجيل. بيروت 1992 م.
- الأعلام. خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت 2002 م.
- تاريخ آداب اللغة العربية. جرجي زيدان. دار مكتبة الحياة. بيروت 1967.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي كراتشكوفسكي. تر صلاح الدين عثمان هاشم. دار الغرب الإسلامي. تونس 2008.
- تاريخ الأدب العربي. بروكلمان. تح النجار وعبد التواب. دار المعارف. مصر 1977.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد. تح إحسان حقي. دار النفائس. بيروت 1981.
- التعليقات والنوادر. هارون بن زكريا الهجري. تح حمد الجاسر. مطبعة العبيكان. الرياض 1993.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. المحبي. دار صادر. بيروت.
- السنن الكبرى. النسائي تح حسن عبد المنعم شلبي. مؤسسة الرسالة. بيروت 2001 م.
- سير أعلام النبلاء. الذهبي. دار الحديث. القاهرة 2006.
- شرح مختصر الروضة. الصرصري. تح عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة 1987.
- صحيح البخاري. تح محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. 1422 هـ.

-
- الطب النبوي. ابن قيم الجوزية. دار الهلال. بيروت 1983.
 - القانون في الطب. ابن سينا. عني به محمد أمين الضناوي. دار الكتب العلمية. بيروت 1999.
 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. حاجي خليفة. مكتبة المثنى. بغداد 1941.
 - لسان العرب لسان العرب. ابن منظور. تح الكبير وحسب الله والشاذلي. دار المعارف. القاهرة.
 - مجلة معهد المخطوطات العربية. جامعة الدول العربية. القاهرة.
 - مسند الإمام أحمد بن حنبل. تح أحمد محمد شاكر. دار الحديث. القاهرة 1995 م.
 - المعجم الذهبي. فارسي عربي. محمد ألتونجي. المستشارية الثقافية الإيرانية. دمشق 1993.
 - معجم اللغة العربية المعاصرة. أحمد مختار. عالم الكتب. القاهرة 2008 م.
 - معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة. بيروت 1957.
 - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم. السيوطي. تح محمد إبراهيم عبادة. مكتبة الآداب. القاهرة 2004.
 - نهر الذهب في تاريخ حلب. الغزي. دار القلم. حلب 1419 هـ.
 - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. البغدادي. وكالة المعارف الجلييلة. استانبول 1951.
 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ابن خلكان. تح إحسان عباس. دار صادر. بيروت 1994.